أبطال الاسلام لاحدات الطلاب

عمرو بن العاص

لحسن حسن علي

—٢—

لما ذهب عمرو بن العاص لفتح مصر ، واستولى على الفرما وبلبيس وأم دنين وأراد ان يفتح قصر الشمع أو حصن بابليون ، وجد ان الحصن منيع ، وأسواره قوية عالية ، وجنوده كثيرون ، وهم مزودون بالسلاح والعتاد الوافر ، فعرف انهُ اذا هاجمهم في هذا الحصن على عددهم الجمّ تعرض بجيشه لضرباتهم ، وسهام قسيهم ، وحجارة منجنيقاتهم ، وهم وراء الحصون تحميهم الاسوار ، فتراجع أمامهم فظنّ تيودوروس قائد الحصن أنهُ يستطيع أن يزحزحهُ عن أم دنين فخرج اليه في جيش كبير . أما عمرو فانهُ أتى بثلثة من جيشه وعلى رأسها خارجة بن حذافة ، وجعلها تكمن عند الجبل الأحمر (في العباسية الآن) ، وأتى بثلثة أخرى ، وجعلها تكمن عند أم دنين بالقرب من النيل ، ثم قابل تيودوروس بباقي الجيش ، فابتدأت المعركة ، والتحم الجيشان واستمرت الموقعة حتى كلّ الفريقان ، ولما أدركهما الفتور والخور كرّ خارجة بن حذافة من الجبل الأحمر وانقضّ بجيشه على تيودوروس كالصاعقة ، ورجاله أقوياء أشداء لانهم لم يشتركوا في المعركة . فتراجع أمامهم جيش تيودوروس واختلّ نظامه ، فقوّى ذلك من عزيمة جيش عمرو واشتدت حماسته ، فزاد ذلك في ضعف جيش تيودوروس ، وفي اختلال صفوفه ، ثم انقض الجيش المرابط عند النيل في أم دنين على جيش تيودوروس من الناحية الاخرى فأصبح جيش الروم محصوراً بين ثلاثة جيوش في غاية الحماسة ، فتمكن عمرو من ان يقضيَ عن آخره ولم ينج من هذا الجيش الا شرذمة قليلة . وهذه الخطة الحربية وان كانت تزينا دقة عمرو في وضع الخطط الحربية المتقنة الفريدة فانها تكشف لنا عن عقلية عمرو وميله الى الترصّد والمباغتة ، وتزينا كيف كان يحب ان يخدع خصمه ، ويبدي له شيئاً يشغله به ، ويخفي عنهُ شيئاً آخر ، وبعد ذلك يفاجئهُ بأمر غريب لم يكن في حسبانه فيوقعهُ في الحيرة والذهول ، وفي أثناء هذا الذهول يتمكن عمرو من القضاء على خصمه بأيسر السبل

ولما تمَّ فتح مصر لعمرو بن العاص ، نصبه عمر بن الخطاب والياً عليها ، فلما تولى عثمان بن عفان صرفهُ عنها وولى مكانه عبد الله بن أبي السرح ، فغضب لذلك عمرو بن العاص ، وثار على عثمان ، وحنق عليه غاية الحنق ، ولكنهُ نظر في المدينة يميناً ويساراً فوجد ان الخطر قريب وان الثوار يتراسلون ، وان الثورة توشك ان تنفجر ، فأدرك ان الخليفة لا محالة مقتول ، وانهُ اذا بقي في المدينة اتهمهُ الناس بأمر عثمان ، لما شاع بين الناس من نعمته وحنقه عليه ، فخرج الى فلسطين وأقام بها ، ولما قتل عثمان وجد عمرو المسلمين قد انقسموا اربعة اقسام

١ — القسم الاول وهو قسم المتورّعين المتدينين ، وهؤلاء نفضوا أيديهم من الفتنة ، وتركوا الثوار والثورة والقتال والقتلة ، وانزووا في بيوتهم يعبدون فيها ربهم ولا يرضى عمرو مطلقاً أن ينضم الى هذا الفريق ، لان ذكاءه وفطنته ونشاطه الوفير تمنعهُ من أن يكون كمًّا مهملاً ، وتبعثهُ على ان يتاجر في هذا الامر حتى يستفيد من هذه الحال الجديدة

٢ — القسم الثاني وهو قسم طلحة والزبير ، وكان يرى هذا الفريق ان الثوار هم الذين أجبروا الناس في المدينة على مبايعة علي ، وهم يرون أن بيعة علي باطلة ، لانها تمت وسيوف الثوار مشهورة على رقاب الناس ، فيجب ان تنقض بيعة علي ، وان يترك الناس وهم احرار يختارون من شاءوا ، وقد رأى عمرو ان هذا الفريق ضعيف ، وأتباعه قليلون ، وجيشه لا محالة مهزوم ، وهو لا ينضم الى فريق سيؤول امره الى الهزيمة المحققة

٣ — القسم الثالث وهو قسم علي بن ابي طالب ، فكّر عمرو في هذا القسم طويلاً ، فرأى ان هذا الفريق كثير الاضطراب ، وانهُ يحوي جماعة من الشذاذ ذوي الرؤوس الصلبة وهم في كثير من الاحيان لا ينقادون الى رئيسهم ولكنهم يجبرونهُ على الاخذ برأيهم

ورأى أن علي بن أبي طالب في جميع اعماله واموره آخذ بأحكام الشريعة والدين ، تارك لأمر الرأي والسياسة ، ورأى ان ما عند علي من العلم بالدين اكثر مما عند عمرو ، فإذا انضمَّ عمرو اليه ، فلن يتخذه وزيراً ولا مشيراً ولا صاحب رأي ، لان الكلمة العليا عنده للدين وحده ، إذاً لا مفر له من ان ينضم الى الفريق الرابع وهو فريق معاوية بن ابي سفيان ذلك الرجل الحول القلب الذي توافق طباعه طباع عمرو

أرسل معاوية الى عمرو يطلب الانضمام اليه ، ويستشيره في امره ، فأشار عمرو على معاوية بأن يطلب منهُ أن يقتل من قتلوا عثمان ، فاذا فعل ذلك فقد أوهن نفسه ، وقتل أنصاره ، وأضعف جنوده لان اكثر الثائرين على عثمان كانوا قد انضموا الى جيوش علي . وإذا قتلهم علي فانهُ يوقع الفتنة في جيشه ، والاختلاف في صفوفه . فاذا أبى ان يقتلهم حاربهُ بجنود الشام ، وهكذا أصبح عمرو بن العاص من أشد الناس مناصرة لعثمان بعد قتله بعد ان كان من اعظم

الحاقدين عليه وقت حياته . كيف ذلك يا عمرو ؟ ألم تكن حاقداً على عثمان كل الحقد ؟ يجيب عمرو عن ذلك دعني أدور مع الزمان كما يدور ، ودعني ألبس لكل حال لبوسها ، فان السياسي لا يستقر على حال واحدة

أخذ معاوية برأيه ، وأتى بالقميص الذي قتل فيه عثمان وهو مضرَّج بدمه ، وشدَّ به أصابع زوجته نائلة التي قطعها السيف حين دافعت عن زوجها ، ثم نشر هذا الثوب على المنبر ، وجعل يحض الناس على الاخذ بثأر هذا الخليفة الذبيح المظلوم ، وما زال بهم حتى بكوا ، وعاهدوا الله على الحرب والانتقام لهذا الخليفة ما بقيت فيهم قطرة من الدماء

ولكن ماذا تجدي الخطب وماذا يفعل التهديد ، وهناك علي بن أبي طالب وهو قائد حربي عظيم محنك ، وشجاعته وقوته الشخصية مضرب الأمثال . أسرع علي بجيشه الى البصرة وقابل جيش طلحة والزبير فتغلب عليه ، ثم سار في بلاد العراق نحو الشمال بجيش كبير يبلغ نحو تسعين ألفاً ، فوجد ان معاوية قد عسكر عند صفين بجيش يبلغ عدده نحو خمسة وثمانين ألفاً . ابتدأ القتال مناوشةً ، ولما طالت المدة زحف علي بجيوشه على جيش معاوية ، وأمعن قائده الفذ الاشتر النخعي في جيش معاوية فتكاً وقتلاً وتنكيلاً حتى تراجع جيش معاوية ورجحت كفة علي ، واوشكت جيوش معاوية على الهزيمة ، فركب معاوية فرسه ، والتجأ الى عمرو وقال لقد هلكنا يا عمرو إن لم تجدنا برأيك ، وهنا تخيل عمرو مصرع طلحة والزبير ، وأدرك ان الأمر ينتظره ، والقتل يترصده ، وأحسَّ حرج الموقف فأدار رأسه ، وقلب افكاره ، وفي الحال أتى بالخدعة الصماء والداهية الدهياء والفكرة الحالكة السوداء أتى بالخديعة التي ارجفت لها الدنيا ، والفت لها الدهر ، وتغير بها مجرى التاريخ ، وانقلبت بها الحوادث . نادى بأعلى صوته في جيش معاوية من كان معهُ مصحف فليلقهُ على سنان رمحه ، ثم نادى في جيش علي والجيش في شدة حماسته وقوته : هذا كتاب الله هو الحكم الفصل بيننا وبينكم ، فان كنتم على حق اتبعناكم ، وإن كنا على حق فيجب عليكم أن تتبعونا ، إنكم اخواننا في الدين ، والاخوة لا تهدر بينهم الدماء ، وبمثل هذه الكلمات تأثرت جيوش علي وكفت عن القتال وقالوا إخواننا في الدين طلبوا صلحنا ، وأرادوا حقن الدماء ، أنقتلهم وقد رجعوا الى كتاب الله ، وبذلك أجبروا عليًّا وأكرهوه على أن يترك هذه الموقعة بعد أن رجحت فيه كفته ، وأصبح قاب قوسين من النصر ، وألجأوه الى اختيار أبي موسى ليحرف حكم الله في هذه الفتنة مع عمرو بن العاص

ولا يجوز لنا أن نسمي بخدعة رفع المصاحف فقد كان لها آثار تاريخية عظيمة لانها

أولاً : منعت علي بن أبي طالب من أن يجني ثمرة انتصاره فهو لم يفتح الشام ، ولم يأسر معاوية ، ولم يقض على الفتنة . ثانياً : أن معاوية تمكن بعدها من تعزيز جيشه وضم صفوفه ،

وتنظيم وسائل الدفاع . ثالثاً : أن علي بن أبي طالب بعد أن كان يقود جيشاً متوحد الكلمة متحمساً للقتال خرج عليه جماعة يعرفون بالخوارج ، وكانوا يقولون إننا على بصيرة من أمرنا ، وعلى يقين من ديننا وإن الله قد أمرنا أن نحارب العصاة حتى يفيئوا الى أمر الله هذا حكم الله الواضح البين فكيف نترك حكم الله وننتظر حكم عمرو وابي موسى هؤلاء الجماعة أصبحوا حرباً على علي وعلى الدول الاسلامية التي ظهرت بعده ، وإن عشرات الآلاف الذين قتلوا منهم وفي سبيلهم كانوا ضحايا هذه الخدعة السوداء الجهنمية التي اخترعها عمرو في لحظة . رابعاً : أن بقية جيوش علي لم تظل على ما كانت عليه من الحماسة وحب الحرب فقد فترت حماستهم بهذه الخدعة ، وأصبحوا يرون أنفسهم يحاربون إخواناً لهم من المسلمين ، فهم لن ينالوا ثواباً على هذا القتال التي تزهق فيه ارواحهم ، وأصبحوا يتسللون من معسكر علي ، وهكذا تمكن عمرو بحيلته وذكائه من تشتيت جيش علي ، ويقضي عليه القضاء المبرم ، ويحوله الى جماعات متفككة لا أثر لها ولا غناء فيها

فبعد أن كان جيش علي في أوج نصره ، وفي نشوة ظفره ، وفي منتهى حماسته ، وبعد ان عجزت عن رده هم الرجال ، وعزائم الابطال ، وشفرات السيوف ، وأسنة الرماح استولت عليه حيلة عمرو المدهشة فزلزلته شذر مذر ، وفطمته إرباً إرباً وجعلته هباء منثوراً

اجتمع الحكمان أبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص فقال عمرو لأبي موسى إن أهل الشام يكرهون عليًّا ، ولا يمكن أن يتصبوه خليفة عليهم أبداً . وإن أهل العراق يكرهون معاوية فعلينا أن ننقذ الناس من الفتنة التي توشك أن تقضي على المسلمين جميعاً ، وعلينا ان نبعد معاوية عن هذا الامر ، ونخلع عليًّا من الخلافة ، ونترك الناس احراراً يختارون من شاءوا خليفة عليهم ، فوافق ابو موسى على ذلك ، ثم قدَّم عمرو بن العاص أبا موسى ليتكلم اولاً تكريماً له واعترافاً بفضله فخلع ابو موسى عليًّا وأقره بعد ذلك عمرو ولكنه ثبت صاحبه ، وبذلك ضرب عليًّا الضربة الاخيرة القاضية ، وبايع اهل الشام معاوية بالخلافة ، ومكث علي مدة حاول فيها ان يجمع شتات جيشه ليعيد الكرة على معاوية ، فلم يطل الله في اجله

ثم تتابعت الحوادث فقتل علي بعد أن ذهب عمرو الى فتح مصر ولما فتحها جعلها له معاوية طعمة فأقام بها حتى مات فيها . فنحن اذا تصفحنا تاريخ عمرو بن العاص ، نجد انفسنا ننتقل من فكرة ناضجة الى فكرة أنضج منها ، ومن حيلة غامضة الى حيلة أغمض منها ، ومن خدعة ملتوية الى خدعة اكثر منها التواء ، وهكذا نجد عمرو بن العاص عاش طول حياته ذا ذهن جبار ، وعقل ناضج ، وحيلة متقطعة النظير

المراجع — (١) حسن المحاضرة للسيوطي (٢) الاغاني لابي الفرج (٣) ابن الاثير (٤) كتاب الدكتور حسن ابراهيم